مقال

إن المدارس النظرية التي تعرضت لمفاهيم الإجرام والانحراف السلوكي قد أخذت كثيراً بمنحى أثر الثقافة في خلق الشخصية الإجرامية وأغرقت تلك النظريات أو المناظير التحليلية عالم الدراسات الاجرامية بتفسيرات حصرية لأثر الثقافة في الجريمة باعتبار أن الحياة هي عمليات تفاعلية بين أفراد المجتمعات ومؤسساتها. وفي ضوء هذا المفهوم تم تجاوز أبعاد أخرى، لها نصيبها في صياغة التوجه الإجرامي، وليس خلق الشخصية الإجرامية، حيث التوجه (استعداد داخلي) بينما الفعل الإجرامي (هو ممارسة للتوجه) لدى هذا الإنسان الذي لديه توجه إجرامي.

أثر العوامل الكيميائية في التوجّه الإجرامي

د. محمد بن سليمان الوهيب*

ويعرف دارسو الجريمة أن الإغراق في التفسير الثقافي Cultural effects نابع عن ردة فعل عنيفة تجاه المدرسة البايولوجية Biology وقد ظهرت جذور هذه المدرسة قديماً جداً في العصور اليونانية حيث يصنف الناس وفق مظاهرهم الخارجية وألوان بشرتهم وشعرهم وعيونهم وغيرها من الصفات التي تريد تبرئة جنس من البشر من صفات النقص وإلصاقها بجنس آخر. وكان هذا المدخل مريحاً لمن يتبناه لن يكون ممن تتهمهم النظرية البايولوجية بالانحراف. وتصبح صفة البراءة من الانحراف قضية ورائية وكذلك الاستعداد للانحراف. والغريب أن هذا المنظور استمر فترة طويلة كمنظور عنصري اتخذ أشكالاً مختلفة بحسب من يتبناه من الأجناس ولكن رغم سخفه العقلي في التحليل، ورغم عجزه عن تفسير الظواهر المضادة المنطوقة إلاّ أنه استمر تحت مظلة التجاهل لنواقض النظرية وانتشر تحت ذرائع الشوفونية المتسترة بالنقاء العرقي ونحوه من الدعاوى الباطلة عقلاً وتجربة.

وكانت مدرسة السمات التي قادها سيزار لمبروزو أحد هذه المناظير في صياغة حديثة حيث تفترض النظرية لبعض السمات المتعلقة بالبشرة والشفتين والعينين وغيرها من الخصائص البشرية لأحد الأجناس، باعتبارها مؤشرات على الشهوانية والعدوانية والتخلف العقلي وغيرها حتى حدث رد الفعل المضاد الذي عكس قضية تفوق العنصر الآري بعد الحرب العالمية الثانية، وثبت أن لا خصائص عرقية للجريمة. وهكذا انعمس علماء الإجرام في ردة فعل معاكسة غادرت الجسد إلى الثقافة، ومن الماديات إلى المعنويات البحتة، باعتبارها أفضل مصادر التفسير الانحرافي لدى الإنسان، إلاّ أ هذا الانقلاب في مفهوم النظريات الإجرامية كان أيضاً متطرفاً حين رفض السماح لمدرسة الخصائص البيولوجية الثقافية لتفسير الانحراف بطرح منظورها وهو المشتمل على الأبعاد الثقافية والبيئية والجسدية للمنحرف باعتبارها عوامل متضافرة تفسر السلوك الانحرافي ولا تستقل أياً منها بالتأثير المنفرد في صياغة الشخصية المنحرفة. وحتى فترة قريبة كانت علوم الجريمة لا تقبل مفهوم الخلل البيولوجي كعنصر مساهم في حدوث السلوك المنحرف وذلك انطلاقاً من أن علم الإجرام ترعرع في أحضان علوم الشرطة وعلم القانون رغم أنه ولد كابن لعلم الاجتماع إلاّ أن الصبغة القانونية طغت عليه فأصبح قانون التجريم أكثر قابلية من نظرية المحرك البايولوجي للإجرام لدى علماء الجريمة.

ومع نهاية السبعينيات عادت بقوة نظرية الخلل البايولوجي عند ملاحظة بروز ظواهر كيميائية جسدية مشتركة لدى المجرمين مع أن هذه الظواهر ملاحظة لدى بعض الناس العاديين مما جعل تفسير (مساهمة) الخلل البايولوجي أكثر قابلية من اعتباره عنصراً (مستقلاً) في تفسير السلوك الإجرام. وحيث تعتبر الهرمونات مؤثرة على السلوك العام للإنسان فإن كيمياء النواقل العصبية Neurotransmitters هي التي تنقل الرسائل الكهربائية للخلايا العصبية Nerve -cells والتي تتحكم في توصيل أوامر المخ للجسم. فالثابت حالياً مثلاً أن كيميائيات التحكم المختلطة كوقود للمخ تختلف نوعياً بين

الرجال والنساء، حيث تدفع كيمياء المخ لدى الرجال تدفع الرجل للنظر إلى العالم من خلال الواقع الفيزيائي المادي بينما هي لدى المرأة تدفع الأنثى للنظر إلى العالم من خلال الانطباع الذاتي أنها تدفع الرجل للسيطرة وليس للنقاش، للمغامرة وليس للامتلاك وسواء كانت الأمور ذات طابع خير أو طابع شرير فإن الرجال هم من كانوا قادة التغيير أصلاً وموجهوه وضحاياه أيضاً.

رغم أن المسارات العصبية وكيميائيات المخ بعيدة عن متناول الميكروسكوبات الفاحصة، نظراً لصغرها المتناهي غير القابل للقياس، سواء في صورتها الثابتة أو في حالتها التي تعمل خلالها إلاّ أن فحصها ومراقبتها ليس بالقدرة البشرية كما أعلم حتى الآن.

ورغم ذلك فإن طريقة البحث عن الأثر لمعرفة المؤثر كانت فاعلة في هذا المجال حيث دأب العلماء متابعة ما يسمى (المميزات أو المؤثرات) (Markers)وهي مكونات توجد عادة في الدم وتدل على وجود أو عدم وجود أودرجة فاعلية النواقل العصبية في المخ يبدو أنه من السهل قياسها بالمقارنة مع العمليات الأخرى المعقدة في المخ. ومن هذه المؤشرات الموجودة في الدم والدالة على النواقل العصبية في المخ هي المادة المسماة (ماو) (MAO) وهي عبارة عن إنزيمات تحدو تقريباً قدرة المخ على السيطرة على النواقل العصبية.

إن انخفاض معدلات (ماو) في الجسم من الإنزيمات المختلفة يؤشر وبدرجة عالية على انخفاض مادة السيروتونين SEROTONIN والتي تعني أن قدرة المخ على التصرف بصورة عقلانية تصبح منخفضة، ولكن درجة اللاعقلانية المؤشر عليها بانخفاض إنزيمات (ماو) الجائلة في الدم يمكن ملاحظتها أيضاً عندما يرتفع معدل إنزيمات (ماو) والسيروتونين أيضاً. والذي يترافق عادة مع الإنطواء عن المجتمع، السلوك المرفوض والغريب اجتماعياً، والذي كذلك يترافق طبيعياً مرتفعة من القلق والعنف وسرعة الاستثارة.

لا شك أن الإنسان المندفع والعنيف يشبه سيارة مسرعة وأصاب الخلل مكابحها انها تسير ولكن ما أقربها للحواد ث والاصطدامات.

وكذلك الإنسان الذي يعاني من انخفاض معدل السيروتونين فإنه يصبح مثل السيارة المعطوبة الكوابح وتلعب الظروف دوراً في حدوث الحوادث له متى ما أصبحت مواتية، كلما انخفض معدل (ماو) والسيروتونين في الجسم أو ارتفع فوق المعدل فإننا نجابه إنساناً مستفزاً سريع الغضب وعاجزاً عن السيطرة على نفسه، ويجد ملاحظة أن هناك مراحل في حياة البشر يتساوى فيها الجنسين في كمية السيروتونين في الجسم (باعتبار مؤشر ماو) حيث يتساوى الذكور والإناث في هذا الصدد حتى سن الخامسة والعشرين تقريباً ثم تبدأ الإناث في إظهار معدلات أعلى من الذكور من السيروتونين ضمن الحد المتوسط بالطبع، مما يجعل سلوك النساء أهدأ من الرجال وأقل قابلية للاستفزاز.. وهذه القاعدة سائدة في عالم الثدييات عموماً حيث الذكور لديهم من السيروتونين ما يوازي ٥٢٪ مما لدى الإناث المماثلات لهم صحة وعمراً.

وكما ثبت أيضاً أن انخفاض معدل السيروتونين في الجسم ارتبط مع العنف والاعتداء والانتحار، ومن خلال التجارب على الحيوانات فقد اتضح أن التأثير لخفض معدل السيروتونين (تحت المعدل) في الجسم لدى حيوانات التجارب رفع معدل العنف والعدوانية لديها أما عكس المليّة ورفعه إلى أعلى معدله، فإنه زاد عمليات الإنجاب والإخصاب لدى الحيوانات كما أصبحت أكثر ألفة وأقل عنفاً، أما تجاوز المعدل الأعلى فيعد العنف السلوك أن عمليات التحكم أو بالأصح التلاعب بكيمياء المخ عملية خطرة وقد تؤدي إلى نتائج مؤسفة، لذا فالأولى في رأيي تناول هذه العمليات بحذر شديد وفقط حسب القدر اللازم لتهدئة الإنسان أو كما يقال في الأمثال (فلان يعقّل فلان، أو يرجع عليه عقله) والمقصود أن يؤثر عليه لا أن يخلق له عقلاً فذلك من عطايا الله لا من ممتلكات خلقه، والمراد تهيئة المندفع هو السيطرة على العنف عن طريق استثارة مصادر السيرتونين أو بتأمينها خارجياً لإعادة توازن الساعة البايولوجية للإنسان وإعادة قدرة التحكم والاستبصار لديه مؤمنين أن ذلك من باب الاستعانة بقدرة الله لا محاولة التصدي لقدره.

ولعل الغد يكشف عن ما يفيد بصدد تحييد العوامل البيولوجية الدافعة للجريمة والانحراف.

وان كنا دائماً نؤكد أن العوامل البايولوجية ليست فاعلاً منفرداً ولكنها ليست نكرة مجهولة، بل هي مؤثرة بدرجات متفاوتة على سلوك الإنسان وخصوصاً الاندفاع أو الاستبصار.

للمزيد من المعلومات حول دور كيمياء المخ في الجريمة والسلوك عموماً

(1) A Mind o Crime", Ann Moir and David Jessel 1995, Pub.Micheal Joseph - London, U.K.

(2) "Criminological Perspectives", John Muncie, Eugene McLaughlin, and

Mary Langan, 1996, SAGE Pub., London, U.K

(*) أستاذ مساعد - الدراسات الحضرية وعلوم الجريمة - قسم الاجتماع - جامعة الملك سعود.